ابي. فسكّن روعها وقال ان اباك طلب الخلوة في جبل سيناء فقضى هذه السنين فيهِ ناسكًا ولكن الرسول وجدهُ مريضًا على حافة قبرهِ وهو يشكو من الجراح التي اصابت رئتيهِ فايامهُ معدودات. فبكت باولين وقالت أيموت ابي وانا سجينة لا استطيع الذهاب اليهِ. فطيب القاضي قلبها وقال ثم اتاني منذ يومين نبطيّ فقال لي ان احد قوّاد الروم ممن حارب المسلمين مريض مشرف على الموت وهو يطلب المجيء الى مصر فهل يؤذن لهُ في ذلك وهل يكون في مأمنٍ من الاسر فلما علمت ان القائد المذكور هو ابوكِ وعدت الرسول بقبولهِ على الرحب والسعة آمنًا مطمئنًا باسم الخليفة فوصل الفسطاط اليوم ونزل في بيتي وقد لقيتهُ نحيلاً ضعيفًا لكنهُ يدفع الاجل عنهُ املاً بلقائك فقد نمى اليهِ انكِ قتلتِ في جملة من قُتل في الشام فلما علم انكِ حية تجددت آمالهُ وعاودهُ بعض القوّة وقد امرتهم باعداد الغرفة المجاورة لغرفتكِ هذه فينزل فيها ويبقى الباب مفتوحًا بين الغرفتين. فصاحت باولين أأرى ابي واعيش معهُ فتموت معًا ثم غلب عليها الفرح فاكبّت على يد القاضي تقبلها اعترافًا بفضلهِ وجميلهِ. فاغرورقت عيناهُ وقال الحمد لله فهو الذي قدّر نجاة ابيكِ وسهّل لقاءكما. ولم تغرب شمس ذلك النهار حتى اقبل توما على السجن فلقيتهُ ابنتهُ وانطرحت عليهِ مغمًى عليها ولما افاقت ارسلت كتابًا الى اوريون تخبرهُ فيهِ بعودة ابيها وتقول انهُ يهديهِ بركتهُ. فلما قرأ اوريون الكتاب احسّ كأن يدًا غير منظورة رفعت عن عاتقهِ ثقل اللعنة التي القاها ابوهُ عليهِ فاستولى عليهِ الفرح وشملهُ الحبور

تعاون الحيوان

لما شرحنا طبائع التمساح في المجلد الحادي والعشرين من المقتطف قلنا ان طائرًا صغيرًا اسمهُ القطقاط يدخل فاه التمساح ويلتقط فضلات الطعام من بين اسنانهِ والتمساح راضٍ بذلك مرتاح اليهِ لا يغدر بضيفهِ ولو اكل الطعام من فيهِ. ونقلنا ما كتبهُ بعضهم وكان قد رأى التمساح مرأى العين ورأى هذا الطائر يدخل فاهُ ويخرج منهُ (انظر الشكل التالي)

ومن السهل ان يُكتب فصل طويل عن تعاون الحيوانات لا التي من نوع واحد او من فصيلة واحدة لان هذه امرها في التعاون مشهور بل التي من فصائل مختلفة كالتمساح والقطقاط والطائر الذي يلتقط القراد عن البقر والابل. فقد قضت العناية ان يُسخّر بعضها لبعض فينتفع الواحد من الآخر ويرد لهُ صاعًا بصاع على غير ما هو شائع بين اكثر طوائف الحيوان والنبات من الجهاد الذي يُقضى بهِ على الالوف لنفع الواحد فيغتذي الطائر الصغير بمئة حشرة

في يومهِ يلتهمها حيَّة ولا يبالي كأنها رزق حلال لهُ ويقوم الانسان رب الحكمة والانصاف على هذه الطيور الصغيرة فيصطادها ويذبحها ويشويها ويأكلها ناعم البال. هذا ليس التعاون الذي نعنيهِ لان فيهِ مصلحة فريق واحد حسب الظاهر لا مصلحة الفريقين معاً وانما نعني ما كان من قبيل ما يفعلهُ القطقاط يلتقط فضلات الطعام من فم التمساح وينظف اسنانهُ ويغتذي بذلك ويشبع جوفهُ وعلى هذا مدار كلامنا الآن

ذكر الاقدمون ان الثعلب يقيم في اجمة الاسد ينبئهُ بالخطر ويرشدهُ الى الصيد فيترك لهُ الاسد فضلات طعامهِ. ولو كان الامر كذلك لعددناهُ من باب تعاون الحيوان الذي كلامنا فيهِ لكن المحققين انكروا الآن ما يخصُّ الثعلب من هذه المعاونة وقالوا انهُ يقتفي آثار الاسود ويأكل ما يفضل من طعامها ولكنهُ لا ينبئها بخطر ولا يرشدها الى صيد فهو طُفَيْلِيٌّ ينتفع ولا ينفع مثل كثيرين من ابناء آدم. الَّا ان الاسود تفعل ما تفعل من تركها الطعام غير قاصدة نفعهُ ولا نفع غيرهِ واذا التقت بهِ وهي جائعة افترستهُ كما تفترس الحملان فهي غير مشكورة على تركها الصيد لهُ كما انها غير مأجورة

ومن هذا القبيل سمكة اسمها الرنّان تتبع التنين (كلب البحر) وتأكل فضلات طعامهِ وكان المظنون انها ترشدهُ الى الطعام وتحذّرهُ من الخطر لكن ثبت الآن انها لا تفعل شيئاً من ذلك بل تكتفي بصاحبتهِ احتماء بهِ لانها ما دامت على مقربة منهُ لم تجسر سمكة اخرى ان تدنو منها. وهي تلتقط ايضاً فضلات طعامهِ فهو لها بمثابة الكفيل يقيها ويقوتها وقد لا يعلم شيئاً مما يفعل من المبرّات

ومنهُ سمكة دقيقة تعيش في بدن الحيوان المعروف بخيار البحر وهي صغيرة لاسلاح لها يقيها من اعدائها فتلجأ الى خيار البحر تدخل الثقب الذي يتنفس منهُ وتقيم في رئتيهِ ولا تخرج منهما الَّا اذا عضَّها الجوع وصنا البحر وكانت قريبة من شاطئ فلا تكثر فيهِ الاعداء فانها تخرج حينئذٍ تلتمس الطعام واذا شعرت بدنو العدو عادت ادراجها الى رئة حاميها ضيفاً غير محتشم لانها قد يأخذ منها اللؤم كل مأخذ حتى تجازي بالسيئة عن الاحسان فتلتهم جانباً من رئتهِ ولا تبالي. لكن خيار البحر صبور يحمل الضيم ويغتفر السيئات فتنمو رئتهُ حالاً من غير اذًى. والمورد العذب شديد الزحام ولذلك تكثر الحيوانات البحرية التي تضيف خيار البحر وتموت في جسمهِ فيقبلها على الرحب والسعة وهو لا ينتظر منها اجراً ولا شكوراً. وما هو بمنفرد في هذا الكرم فالانسان يجري مجراهُ تدخل الديدان معدتهُ وامعاءهُ وتقيم فيها الشهر بعد الشهر والعام بعد العام وهو غير ناقم منها وقد تقيم على ظاهر يدتهِ فلا يشكو منها الَّا اذا تمادت في اذاهُ

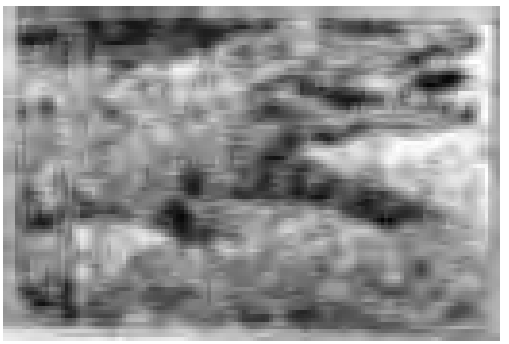

(١) طائر القطقاط في فم التمساح

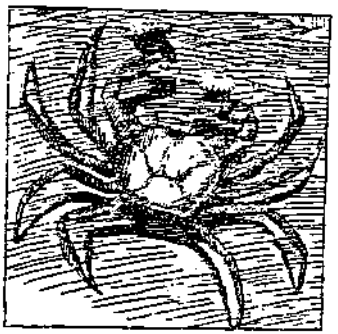

(٤) سرطان حامل شقيقتين

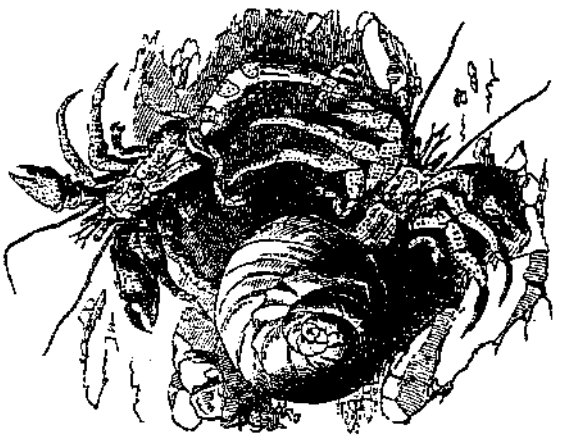

(٢) السرطان الناسك في القوقعة وخارجاً عنها

(٥) السرطان الناسك حامل صدفة يستظل بها

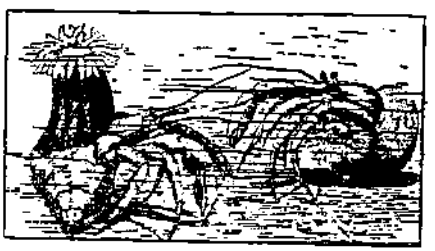

(٣) السرطان الناسك وشقيقة على قوقعته

(٦) عقرب حاملة زهرة تستظلُّ بها

هذا ولنعُد الى الحيوان الاعجم فنقول

قال الدميري في حياة الحيوان الكبرى "ان السرطان لا يتخلّق بتوالد ولا تناج انما يتخلق في الصدف" اي انهُ يتولد في الصدف مباشرة . وهذا خطأٌ فاضح والحقيقة ان نوعاً صغيراً من السرطان يدخل الصدف ويقيم مع الحيوان الذي فيهِ وقد عرف ذلك المصريون القدماء وذكرهُ ارسطوطاليس وبليني وس . وقال القدماء ان السرطان كالحاجب لحيوان الصدف يرى العدو وينذرهُ بقدومهِ فيطبق مصراعيهِ ويجازيهِ على ذلك بالمأكل والمأوى. ولكن لا دليل على ان السرطان يقيم في الصدفة لهذه الغاية وانما يقصدها للسكن ولا تثقل وطأتهُ على حيوانها فيرحّب بهِ ولو لقي منهُ الاذى ما تعذّر عليهِ الخلاص منهُ لان الحيوانات كلها تحاول الخلاص من كل طفيلي فتتململ وتحكك وتذب الذباب عنها باذنابها امّا حيوان الصدف فلا يحرك اصبعاً لابعاد السرطان عنهُ . ويشبههُ في هذا الكرم نحلة متندية سوداء تثقب سوق الاشجار وتصنع فيها غرفاً بعضها فوق بعض تبيض فيها . ويعلق بهذه النحلة نوع صغير من النمس فلا تهتمّ بالتخلّص منهُ بل تفتح لهُ جيباً صغيراً فوق حقويها وتدعهُ يقيم فيهِ وتضم طرفي هذا الجيب اذا شاءت حتى يتعذّر على النمس الخروج منهُ فتحمل ضيفها على ظهرها ولا تبالي لان جيبها مبطّن بمادّة قرنيّة يعسر على النمس نخرها. وكأنها ادركت ان لاحيلة لها بابعادهِ عنها وانهُ اذا بقي لاصقاً بها فقد يقع بعضهُ مع بيضها وبأكلهُ فلجأت الى اخف الضررين وهو ان تحمل النمس في هذا الجيب وتقفل عليهِ بابهُ الى ان يتم غرضها من الحياة وهو وضع بيضها في بيوتهِ واعداد الغذاء الكافي لصغارها من العسل ونحوهِ والنمس نفسهُ يلجأ الى الجيب ولا يعود يخرج منها وهي تحفر البيوت لبيضها وتضعهُ فيها لانهُ يعلم انهُ اذا وقع في تلك البيوت عرّضاً تعذّر عليهِ الخروج منها فيموت جوعاً ولو استطاع ان يغتذي ببيض النحلة اولاً . فهذا الجيب مفيد لهُ ولصغار النحل لانهُ يقيهِ ويقيها من التلف

واكرم الحشرات وارحبها منازل النملُ فترى الضيوف في بيوتهِ من انواع مختلفة تدخل وتخرج على الرحب والسعة عدا ما فيها من العبيد والجواري والخدم والحشم من ضيف كريم وغريب نزيل وخادم امين وطفيلي ثقيل . ترى هناك المن الذي يفرز العسل يربّى ويُحلب كالمواشي والنمل الذي من نوع آخر أُسر في الحرب ودُرّب على الخدمة كالعبيد وترى ايضاً انواعاً من العناكب والخنافس تدخل وتخرج والنمل يلتقي بها فيقف قليلاً يتعرّفها. ثم يمرُّ في طريقهِ غير مكترث لها اما هي فتعلم انها ما دامت في بيتهِ فهي في حرز حريز من الحشرات التي تسطو عليها

ويدخل قرى النمل ضيف آخر من نوع النمس وهذا لا يتنازل الى سكن البيوت بل يجعل مقرَّهُ اعناق دود النمل فان بيض النمل يصير دودًا قبلما يصير نملاً فيأتي هذا النمس ويضع بيضهُ على عنق الدود فينقف حالاً ويصير دودًا صغيرًا

وكلما جاء النمل ووضع الطعام لدودهِ في الجيب الذي تأكل منهُ الدودة وهو في نحرها بين فيها ومعدتها اكل دود النمس منهُ كفايتهُ ثم ان دودة النمل اذا بلغت حدَّها من النمو نسجت لنفسها شرنقةً واقامت فيها الى ان تبلغ اشدَّها وتخلق نملة وحينئذٍ تنقب الشرنقة وتخرج منها ويبقى دود النمس في الشرنقة وقد بلغ حدَّهُ من النمو ايضًا ودنا وقت صيرورتهِ حشرات طيَّارة فيأتي النمل ويجمع قشور الشرانق ويطرحها خارج قريتهِ ويكون دود النمس فيها وقد صار حشرات مجنحة كما تقدَّم فيطير في الهواء ويتزاوج وتعود اناثهُ الى قرى النمل وتبيض على اعناق بيضهِ كما تقدم ويدور الدور الى ما شاء الله

وهذا النمس ضيف محشم وان كان طُفيليًّا ولكن يقصد منازل النمل ضيف آخر غير محشم وهو لا يبيض على اعناق دود النمل بل على اعناق النمل نفسهِ ويتولد الدود من بيضهِ ويخر رأس النملة التي هو على عنقها ويأكل دماغها ثم يقطع رأسها عن بدنها ويقيم فيهِ كانهُ بيت لهُ الى ان يبلغ اشدهُ ويصير حشرة مجنحة . وحينما يكون في رأس النملة دئبًا على اكل دماغها تكون هي قائمة على عملها ولو تململت وابدت الضجر من وقت الى آخر حتى اذا فرغ من اكل دماغها وقطع عنقها بقي بدنها قائمًا يحاول السير من غير رأس . وعلى ذلك ترى امام قرى النمل كثيرًا من رؤوسهِ المقطوعة . ولا يُعلم لماذا يحجم النمل السليم عن مساعدة اخوانهِ ولكن الباحث في طبائع الخلق بنوع عام يرى في الموت صلاح المجتمع فانهُ اذا لم يمت بعض افرادهِ لم يعُد الغذاء كافيًا لهُ فيهلك كلهُ . فان كان النمل يدرك ذلك ويرضى بموت بعضهِ عن طيب نفس لكي ينجو المجتمع كلهُ فيكون قد ادرك ما لم يدركهُ كثيرون من العقلاء حتى الآن

والسرطان بين حيوانات البحر كالنمل بين حيوانات البر في الذكاء والدهاء ومنهُ نوع صغير يسمَّى الناسك ترك البداوة ولجأ الى الحضارة ينتش على قوقعة مهجورة يسكنها ومن ثم اخطأ الدميري ومن جرى مجراهُ وظنوا انهُ يتولد في الصدف . وقد ظن هذا السرطان ان البيت الصدفي يقيهِ من الموت ونسي قول القائل

والموت لا يمنعك من آفاتهِ حصن ولو شيَّدتهُ بالجندلِ

فان السراطين الكبيرة التي تلتهم الصغيرة جريًا على القانون العام وهو ان الكبار يأكلون الصغار تستخرجهُ من هذا البيت وتطحن عظامهُ والسمك القوي الانياب يلتقم البيت والساكن

فيهِ . ولما رأى ان القوة تعوزهُ لجأ الى الحيلة على حدّ ما قيل اذا انت لم تغلب فاخلب. فانهُ رأى حيواناً جميل المنظر قبيح المخبر يقال لهُ شقيق البحر يلصق بالصخور كالقطر وتتشعب من رأسهِ شعب كثيرة كالشعر او كالاهداب الوانهُ تزري بالوان الازهار بين احمر واصفر واخضر وبرتقالي وبنفسجي لكنهُ سام خريف اذا اغريت يدٍ سمكة وحاولت اكل شيء منهُ لدغها طعمهُ كالعقرب فلم تعد تحاول ذلك مرّة اخرى . وكأن السرطان الناسك اكتشف مزية هذا الحيوان فصار يقلعهُ عن الصخور ويلصقهُ بالقوقعة التي يتيم فيها فيأمن شر الحيوانات الكبيرة التي تصطادهُ لكنهُ لا يستخدمهُ عفواً بل يقوتهُ بدل حمايتهِ لهُ وذلك انهُ اذا قبض على فريستهِ مزّقها قبلما يأكلها فينتشر الفتات منها في الماء والحيوان المشار اليهِ يبتلع ماء البحر على الدوام ويبقي في جوفهِ ما فيهِ من الغذاء فيغتذي من فضلات السرطان ويكتفي بذلك ولا يطمع باكثر. لكن انصاف السرطان لهذا الحيوان لا يبرئهُ من اغتصابهِ القوقعة التي يسكن فيها وهي ليست لهُ . وما ظالم الاّ ويبلى باظلم فان دودة طويلة من ديدان البحر تخالفهُ الى القوقعة وتسكنها معهُ وكلما خرج ليتناول طعامهُ مدّت رأسها غير مدعوّة وقاسمتهُ الطعام وهو صابر عليها صبر الكرام لسبب لا يُعلَم حتى الآن فقد ظُنّ قبلاً انها تنظف منزلهُ من مبرزاتهِ وهذا سبب صبرهِ عليها ولكن اتّضح الآن انها لا تفعل شيئاً من ذلك

والظاهر ان طائفة السرطان عرفت خواص شقيق البحر في كل البحار ففي بحر الهند سرطان يقبض على شقيقتين صغيرتين بمخلبيهِ و يستخدمهما سلاحاً للهجوم والدفاع فيهجم بهما على الحيوانات الصغيرة ويلمسها بهما فتنشل من المادة السامّة التي في الشقيقتين فيقبض عليها ويفترسها . واذا هجم عليهِ عدو يريد افتراسهُ قابلهُ بالشقيقتين واذاقهُ من الالم ما يعلّمهُ ان النجاة بالهرب . والظاهر ان الشقيقتين لا تتألمان من قبض السرطان عليهما بمخالبهِ او انهما تكتمان الكمد وتظهران الجلد لاشتراكهما معهُ في المنفعة فانهُ اذا اصطاد حيواناً شاركاهُ في اكلهِ على ما تقدّم

وكثيراً ما ترى بعض السراطين وعلى ظهرها قطع من الاسفنج والنبات البحري ويُظَن لاول وهلة ان هذه النوامي نبتت من نفسها كما تنمو على الصخور ولكن ليس الامر كذلك بل ان السرطان نفسهُ يقتلعها ويزرعها على ظاهر جسمهِ حتى يصير كقطعة من الصخر فما النبات والاسفنج عليها وغرضهُ من ذلك الحيلة على الحيوانات التي تفترسهُ حتى تظنهُ حجراً فلا تطمع فيهِ وعلى الحيوانات التي يفترسها حتى تدنو منهُ غير موجسة شرًّا . والسرطان يخلع قشرهُ مراراً وهو ينمو فيضطر ان يزرع النبات والاسفنج على ظاهرهِ كلما خلع القشر القديم وتكوّن لهُ قشر جديد . عمل

شاق يقتضي عناية وروية ونكنهُ يقدم عليهِ من حداثتهِ ويمارسهُ طويلاً فيمضي الى جيث يجد طحالب البحر ويقتلع قطعة منها بمخالبهِ ويضغ طرفها ويمزجهُ بلعابهِ حتى يسهل عليهِ الصاقهُ ببدنهِ وكلما التصق قطعة على جانب الصق قطعة اخرى مثلها على الجانب الآخر حتى تغطّى قشرتهُ واذا ابت قطعة ان تلتصق اعاد مضغها ومزجها باللعاب حتى تلتصق جيداً فيلبس من النبات والاسفنج ثوباً لا يبلى ولا يضطر الى تجديدهِ الاَّ حينما يجدد قشرهُ او حينما يذهب الى مكان يسهل اكتشافهُ فيهِ فاذا غطى جسمهُ بالنبات مثلاً ومضى الى مكان ارضهُ مغطاة بالاسفنج واحبَّ الاقامة فيهِ نزع النبات عن جسمهِ وزرع مكانهُ اسفنجاً حتى يسهل عليهِ الاختفاء بين الاسفنج . ولكن الطبيعة لم تتم نعمتها لهُ فاعطتهُ هذا المقدار من الذكاء ولكنها حرمتهُ التمييز بين الالوان فقد يغطي بدنهُ بنبات احمر اللون وهو قائم في مكان نباتهُ اخضر او اصفر وكذا فعلهُ بالاسفنج لانهُ مصاب بالعمى اللوني على ما يظهر ويؤيد ذلك انهُ ينزع لباسهُ او يلبسهُ نهاراً وليلاً في النور والظلام على حدٍّ سوى وبفعل ذلك بالدقة التامة ولو كان اعور او اعمى كأنهُ يعتمد على حاستي الشم واللمس لا على حاسَّة البصر

ولا تنتهي غرائب السراطين في لبس الثياب المخفة بل منها ما يحمل مظلة فوق رأسهِ يتقي بها حر الشمس في البلدان الحارَّة وقد تكون هذه المظلة ورقة شجر كبيرة او صدفةً او قشرة حيوان من الحيوانات القشرية

ولا يماثل السرطان في حمل المظلة الاَّ العقرب فقد ذكر احد الثقات ان بعضهم رأى عقرباً في عدن تدبُّ وهي ماسكة زهرة باحد قرنيها تظلل رأسها بها . والعقرب تكرهُ الحر الشديد فتخرج ليلاً في طلب فرائسها وتختبئ نهاراً في مكان ظليل والظاهر ان هذه العقرب ابعدت عن سربها فادركها النهار قبلما عادت اليهِ واذتها حرارة الشمس فقطفت الزهرة ورفعتها فوق رأسها لتقيهِ بظلها والاَّ فلا وجه لتفسير عملها لانها لا تأكل النبات حتى تأكلها ولا تشرب الماء حتى تمتص عصارتها

وقد نشرنا مع هذه المقالة صورة القطقاط يلتقط فضلات الطعام من بين اسنان التمساح وصورة السرطان الناسك وصورتهُ وقد زرع شقيق البحر على قوقعتهِ وصورة السرطان الهندي الذي يقبض على شقيق البحر ويقابل بهِ الاعداء وصورة السرطان الذي يحمل مظلة فوق رأسهِ والعقرب التي شوهدت في عدن ومعها زهرة تستظل بها ونقلنا اكثر ذلك عن مجلة لندن

هذا يسير من موضوع كلهُ فكاهات وغرائب ولا شيءَ الذ للانسان من درس الطبيعة